الفصل الثاني
العدل

المبحث الأول
أقوال المفسرين في (أمة وسطاً)

أما العدل فقد صح فيه الحديث عن رسول الله ﷺ حيث فسر قوله تعالى: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣) بقوله: عدولاً، وذلك في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري، حيث قال ﷺ: «الوسط العدل»[١] وفي رواية الطبري: قال ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ عدولاً[٢].

وقال القرطبي رحمه الله: الوسط: العدل، وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها. ثم قال: قال علماؤنا: أنبأنا ربنا تبارك وتعالى في كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة، وتولية الشهادة على جميع خلقه فجعلنا أولاً مكاناً، وكنا آخراً زماناً كما قال ﷺ: «نحن الآخرون الأولون»[٣] وهذا دليل على أنه لا يشهد إلا العدول، ولا ينفذ قول الغير على الغير إلا أن يكون عدلاً[٤].

ومما يدل على أن العدل من ملامح الوسطيَّة قول الطبري رحمه الله: وأما التأويل فإنه جاء بأن الوسط العدل، وذلك معنى الخيار، لأن الخيار من الناس عدولهم[٥] ثم ساق

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (٥/ ١٧٧) رقم (٤٤٨٧).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٦).

(٣) مسلم، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٢/ ٥٨٥ رقم ٨٥٥).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٢/ ١٥٥).

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٧).

الأدلة من السنة وأقوال السلف في ذلك.

المبحث الثاني
وجوب العدل على هذه الأمة وصور من قيامها به

العدل من الأسس والقيم التي جاءت بها جميع الشرائع السماوية، فأنزل الله به كتبه، وأرسل به رسله، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥) أي العدل، فما من كتاب أنزل ولا رسول إلا أمر أمته بالعدل، وأوجبه عليها، والأمم بين طائع آخذ منه بنصيب، وحائد مائل عن العدل والقسط بجهل أو هوى، والرسل ما تزال تجدد ما نسيته الأجيال، وتذكر الناس بما نسوا إلى أن ختمت الرسالات بخاتم الأنبياء نبينا محمد ﷺ. ولما كانت هذه الرسالة المحمدية خاتمة الرسالات، والنبي ﷺ خاتم الأنبياء والرسل، وهذه الأمة خاتمة الأمم، والأمة التي جعلها الله شاهدة على الناس وقيِّمة على البشرية، تبلغها دين الله، وتشهد لها بالإيمان أو عليها بالكفر والعصيان: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فقد كان العدل من أهم ما يجب على هذه الأمة، بل هو من أعظم ما يميزها عن الأمم. ولم يكتف الحق تبارك وتعالى بإيجاب العدل على هذه الأمة، بل أراد منها أن تجعله خُلقاً من أخلاقها، وصفة من صفاتها، وصبغة تصطبغ بها من دون الناس، فأمرها أن تكون قائمة بالعدل، بل قوامة به بين الناس لله ﷻ، لا لأي شيء آخر فلا تحابي فيه قريباً لقرابته ولا تضار عدوّاً لعداوته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (المائدة: ٨).

قال الإمام ابن جرير في تفسير هذه الآية: (يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله، وبرسوله محمد ﷺ ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل، في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامهم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعداوتهم ولا تقصروا فيما حددت لكم من أحكامي، وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدي، واعملوا فيه بأمري)[1].

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٩٥).

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (أي: كونوا قائمين بالحق لله ﷻ، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا شهداء بالقسط، أي بالعدل لا بالجور ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم؛ بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقاً كان أو عدوّاً)[1] وقال في موضع آخر: (أي: لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد في كل أحد في كل حال)[2].

فالعدل الذي أُمِرت به هذه الأمة، حق عام لكل أحد من الناس، لا يحجبه عن مستحقة شنآن ولا عداوة، ولا يحول دونه اختلاف لون ولا جنس ولا دين: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ (النساء: ٥٨).

فالعدل حق لكل الناس وجميع الناس، لا عدلاً بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب، ولا عدلاً مع أهل الكتاب دون سائر الناس، وإنما هو لكل إنسان بوصفه (إنسان) فهذه الصفة ـ صفة الناس ـ هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني، وهذه الصفة التي يلتقي عليها البشر جميعاً، مؤمنين وكفاراً، أصدقاءً وأعداءً، سوداً وبيضاً، عرباً وعجماً، والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل ـ متى حكمت في أمرهم ـ[3].

العدل واجب على هذه الأمة ولو كان فيه مراغمة لعواطف البغض والعداوة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وهو كذلك واجب ولو كان فيه مراغمة لكافة عواطف الحب والمودة والقرابة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥) والأمة مأمورة بأن تقوم بالعدل والقسط والشهادة لله وليس لأحد سواه، وأن يكون ذلك منهم بدافع التقوى والخوف من الله ﷻ حتى يصبح الجميع أمام العدل سواء بدون اعتبار لدوافع الحب

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٨).
(٢) انظر: نفس المصدر.
(٣) انظر: في ظلال القرآن (٢/ ٤١٤).

والولاء والقرابة، أو البغضاء والشنآن والعداوة، لأنها إنما تقوم بالعدل والقسط بين الناس لله وبأمر الله. والعدل بهذه الصورة الشاملة، لم تعرفه البشرية قط إلا على يد هذه الأمة، ولم تنعم به البشرية قط إلا تحت حكم الأمة المسلمة.

ثانياً: قيام هذه الأمة بالعدل:

لم يكن العدل في حياة هذه الأمة المحمدية الخاتمة مجرد مُثل عُليا، أو وصايا تفخر بها دون ممارسة أو تطبيق، ولكنه كان واقعاً عاشته هذه الأمة ومارسته، وطبقته في واقع حياتها، على مر تاريخها الطويل، على تفاوت في ذلك التطبيق بين زمان وزمان، ودولة ودولة، وحسب اشتعال جذوة الإيمان في قلوب الحاكمين وخبوئها، غير أن ما يقطع به أنه لم يخل زمان ممن يقيم الحق والعدل ويقوم بالقسط ويحكم به من هذه الأمة.

وحسبنا أن نذكر فيما يلي صوراً من عدل هذه الأمة فيما بينها، ومع أعدائها وخصومها، وأهل ذمتها وسنختار هذه الصور من واقع الأمة من خلال تاريخها الطويل، ليعلم أن هذه الأمة لم تزل قائمة بالقسط بين الناس شاهدة به على الناس لله، وأنها جديرة بأن تكون الأمة الوسط الشاهدة على البشرية، وأولى هذه الصور نعيشها مع سيد الخلق وإمام العالمين نبيّنا محمد ﷺ إمام هذه الأمة ومعلمها الخير، وهو يضرب أروع الأمثلة ويلقن أمته أبلغ دروس العدل والإنصاف والمساواة[١].

فها هو ﷺ يقيد أحد أصحابه من نفسه في طعنة طعنها إياه بالقدح في بطنه أثناء تسويته الصف للقتال، روى ابن إسحاق[٢] أنه ﷺ: (عدل صفوف أصحابه يوم بدر وفي يده قدح[٣] يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية[٤] وهو مُسْتَنْتِلٌ من الصف، قال ابن

---

(١) انظر: وسطيَّة أهل السنة بين الفرق (١٦٨).

(٢) هو العلامة الإخباري أبو بكر القرشي الكلبي مولاهم المدني صاحب السيرة النبوية ولد عام (٨٠هـ)، وتوفي عام (١٥١هـ)، وقال عنه الذهبي: هو أول من دون العلم في المدينة قبل مالك وذويه وكان في العلم بحراً عجاجاً ولكنه ليس بالمجود كما ينبغي. انظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٥).

(٣) القداح: (بكسر القاف وسكون الدال: السهم) لسان العرب (٢/ ٥٥٦).

(٤) هو: سواد بن غزية الأنصاري من بني عدي بن النجار، شهد بدراً وأمره النبي ﷺ على خيبر. انظر: ابن حجر، الإصابة (٢/ ٩٥).

هشام[١]: ويقال: مستنصل[٢] من الصف ـ فطعنه في بطنه بالقدح ـ وقال: استو يا سواد، فقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: «استقد». قال: فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: «**ما حملك على هذا يا سواد؟**» قال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك فدعا له رسول الله ﷺ بخير)[٣].

وجاء يهودي يشتكي إليه أحد أصحابه قائلاً: (يا محمد: إن لي على هذا أربعة دراهم وقد غلبني عليها، قال: «**أعطه حقه**»، قال: والذي نفسي بيده، ما أقدر عليها، قد أخبرته أنك تبعثنا إلى خيبر فأرجو أن تغنمنا شيئاً فأرجع فأقضيه، قال: «**أعطه حقه**». وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يراجع...)[٤].

وكان ﷺ يقيم حدود الله على من وجب عليه ذلك في عدل وإنصاف لا تأخذه في ذلك لومة لائم ولا قرابة قريب ولا مكانة شريف، فها هو ﷺ وهو الصادق المصدوق البار في قسمه يقول: لو أن ابنته سرقت لأقام عليها الحدّ، لا يدفعه عنها كونها ابنة محمد ﷺ.

وأخرج الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «أن قريشاً أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم رسول الله ومن يجترىء عليه إلا أسامة فقال: «**أتشفع في حد من حدود الله؟**» ثم قام: فخطب فقال: «**يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها**»[٥].

فإن قيل: هذا محمد رسول الله ﷺ وليس غريباً منه هذا العدل، ومن يعدل إن لم يعدل هو؟

---

(١) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام أيوب الذهلي، وقيل: الحميري، وهو الذي قام بتهذيب سيرة ابن إسحاق، وهو من أئمة اللغة والنحو، كان مقيماً بمصر، واجتمع بالشافعي توفي عام (٢١٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٢٩).

(٢) مستنصل: أي خارج، من نصل، بمعنى: خرج: لسان العرب (١١/ ٦٦٢).

(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٦٢٦) بتحقيق مصطفى السقا وزملائه.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٣).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة إذا رفع إلى السلطان (١٢/ ٨٧)، رقم الحديث (٦٧٨٨).

قلنا: وهذا رجل من أصحاب رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ، يهتدي بهدى رسول الله ﷺ، فيقيم العدل والقسط بين الناس يحكم بالحق لرجل يهودي على مسلم، ولم يحمله كفر اليهودي على ظلمه والحيف عليه، أخرج الإمام مالك[١] من طريق سعيد بن المسيب: (أن عمر بن الخطاب ﷺ اختصم إليه مسلم ويهودي، فرأى عمر أن الحق لليهودي فقضى له، فقال له اليهودي: والله لقد قضيت بالحق...)[٢].

وكان ﷺ يأمر عماله أن يوافوه بالمواسم، فإذا اجتمعوا قال: أيها الناس إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم، ولا من أموالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم، وليقسموا فيئكم بينكم، فمن فعل به غير ذلك فليقم، فما قام أحد إلا رجل واحد قام فقال: يا أمير المؤمنين إن عاملك فلاناً ضربني مائة سوط، قال: فيم ضربته؟ قم فاقتضي منه، فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك، فقال: أنا لا أقيد، وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه، قال: فدعنا فلنرضه، قال: دونكم فارضوه، فافتدى منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين[٣]. وإن لم يرضوه لأقاده[٤] ﷺ.

وجاء رجل من أهل مصر يشكو ابن عمرو بن العاص واليه على مصر قائلاً: (يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم، قال: عذت معاذاً قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أتسبقني وأنا ابن الأكرمين؟

فكتب عمر إلى عمرو ﷺ يأمره القدوم ويقدم بابنه معه، فقدم فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين، قال أنس: فضرب، فوالله، لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما رفع عنه حتى تمنينا أن يرفع عنه، ثم قال عمر للمصري: اصنع على صلعة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه، فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم

---

(١) هو الإمام مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو، إمام دار الهجرة، ولد عام (٩٣هـ) عام موت أنس بن مالك بن النضر، خادم رسول الله ﷺ وطلب العلم بصدق وإخلاص، فكان أحد الأئمة الأربعة فنفع الله به المسلمين وتوفي ١٧٩هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٩ ـ ١٣٥).

(٢) الموطأ: كتاب الأقضية، باب الترغيب في القضاء بالحق، (٧١٩)، رقم الحديث (٢).

(٣) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٣/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤).

(٤) أقاده: اقتص منه.

أمهاتهم أحراراً؟! قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني[١].

فانظر إلى هذه المواقف الرائعة لعدالة هذه الأمة، رجل من عامة الناس وفي رواية أنه ذمي من أقباط مصر، يتظلم فيعطى حقه ويقاد من ابن الأمير يجاء به وبأبيه ليعطى الرجل حقه وينصف، ثم انظر إلى الحاضرين من أصحاب النبي ﷺ كيف أحبوا ذلك وأيدوه (فوالله، لقد ضربه ونحن نحب ضربه) لا تشفياً منه ولا شماتة بعمرو وابنه، فالقوم فوق ذلك وأبعد ما يكونون عن التشفي والشماتة، ولكنهم جيل أحب العدل وعاشه وتربى عليه على يد رسول الله ﷺ، لذلك فهو يبغض الجور ولا يحب رؤيته في الأمة ولو كان رجلاً مخالفاً لها في عقيدتها ودينها وشرعها، ويفرح أشد الفرح لرؤية العدالة ترمي بجذورها في أعماق الأمة ليؤخذ حق ضعفائها وأتباعها من أقويائها[٢].

فإن قيل: هذا الخليفة الثاني أمير المؤمنين عمر الفاروق ومثله خليق بإقامة العدل في رعيته!

فإليك صورة أخرى بطلها ليس بخليفة ولا أمير، ولكنه رجل من عامة أصحاب رسول الله ﷺ هو الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة[٣] يكل إليه النبي ﷺ خرص مزارع خيبر التي تركها ﷺ بيد اليهود، فيحاول اليهود رشوته ليخفف عليهم في الخرص، فيشتد غضبه ﷺ أن ساوموه على أمانته وعدالته ويقول مخاطباً إخوان القردة والخنازير: (يا معشر اليهود: أنتم أبغض الخلق إليَّ، قتلتم أنبياء الله ﷻ، وكذبتم على الله، وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم وقد خرصت عشرين ألف وسق من تمر، فإن شئتم وإن أبيتم فلي، فقالوا: بهذا قامت السمٰوات والأرض قد أخذنا فاخرج عنا)[٤].

وأقر اليهود بعدم ظلمه واعترفوا بعدله وإنصافه، فإن قيل هذا صحابي جليل تربى على يد الرسول ﷺ، فليس ببدع أن يعدل ويحكم بالقسط إذا وكل إليه الحكم في أمر من الأمور.

---

(١) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (٢٢٥ ـ ٢٢٦).

(٢) انظر: وسطيَّة أهل السنة بين الفرق (١٧٠).

(٣) هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي الشاعر المشهور، أحد النقباء ليلة العقبة، شهد بدراً، وما بعدها، إلى أن استشهد بمؤتة. ابن حجر، الإصابة (٢/ ٣٠٦).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٣٦٧) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح (٤/ ٢٢).

قلنا: لندع جيل الصحابة رضوان الله عليهم، فإنهم جيل فريد الأصل فيهم الخير والعدالة، ولنتجاوزهم إلى غيرهم ممن جاء بعدهم: فهذا شريح القاضي رحمه الله[١] يتحاكم إليه أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ورجل ذمي فيحكم شريح يرحمه الله للذمي على أمير المؤمنين، فقد أخرج البيهقي[٢] بسنده عن الشعبي[٣] قال: خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إلى السوق فإذا هو بنصراني يبيع درعاً قال: فعرف علي رضي الله عنه الدرع، فقال: هذه درعي، بيني وبينك قاضي المسلمين، قال: وكان قاضي المسلمين شريح، كان علي رضي الله عنه استقضاه، قال: فلما رأى شريح أمير المؤمنين قام من مجلس القضاء وأجلس علياً رضي الله عنه في مجلسه، وجلس شريح قدامة إلى جنب النصراني، فقال له علي رضي الله عنه: يا شريح لو كان خصمي مسلماً لقعدت معه مقعد الخصم، ولكني سمعت رسول الله يقول: «**لا تصافحوهم ولا تبدؤهم بالسلام ولا تعودوا مرضاهم، ولا تصلوا عليهم، ولجوهم إلى مضايق الطريق، وصغروهم كما صغرهم الله**»[٤]. اقض بيني وبينه يا شريح فقال شريح: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: فقال علي رضي الله عنه هذه درعي ذهبت مني منذ زمان قال: فقال شريح: ما تقول يا نصراني؟[٥].

قال: فقال: ما أكذب يا أمير المؤمنين الدرع هي درعي، فقال شريح: ما أرى أن تخرج من يده فهل من بينة؟ فقال علي رضي الله عنه: صدق شريح. قال: فقال النصراني: أما أنا أشهد أن هذه أحكام الأنبياء أمير المؤمنين يجيء إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه، هي والله يا أمير المؤمنين درعك. اتبعتك من الجيش وقد زالت عن جملك الأورق، فأخذتها، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قال: فقال علي رضي الله عنه أما إذا أسلمت فهي لك، وحمله على فرس عتيق، قال فقال الشعبي: لقد

---

(١) هو شريح بن الحارث بن قيس الكندي، قاضي الكوفة كان يكنى أبا أمية، توفي سنة ثمان أو تسع وسبعين وقد عاش مائة وثماني سنين، ترجمته في طبقات ابن سعد (٦/ ١٣١)، والحلية لأبي نعيم (٤/ ١٣٢)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ١٠٠).

(٢) هو الإمام العلم أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي الشافعي، الحافظ، صاحب التصانيف الكثيرة السائرة، لزم الحاكم مدة، وأخذ عنه، وعن غيره، توفي عام (٤٥٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٦٣).

(٣) هو التابعي عامر بن شرحبيل الشعبي الحميري أبو عمرو، ولد سنة (١٩هـ) بالكوفة عد من أذكياء العالم، توفي سنة ١٠٣هـ. انظر: تهذيب التهذيب (٥/ ٦٥).

(٤) السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي (١٠/ ١٣٦).

(٥) وفي رواية أن خصم علي رضي الله عنه يهودي. انظر: الحلية لأبي نعيم (٤/ ١٣٩).

رأيته يقاتل المشركين)[١].

ويبين لنا هذا النص كيف كان قضاة المسلمين يصدرون أحكامهم العادلة فيما يعرض عليهم من قضايا في حرية تامة ولا تأخذهم في إقامة العدل لومة لائم، القوي والضعيف، الحكم والمحكوم، المسلم والذمي، الراعي والمرعي، الأمير والحقير كل أمام القضاء سواء. لذا حكم القاضي شريح على أمير المؤمنين ﷺ للنصراني بما رآه حقاً، وأمير المؤمنين ﷺ يرضى بالحكم ويصدق شريحاً على صحة ما قضى به، لأنه حكم بمقتضى قواعد الشرع، فكان ذلك كله سبباً في إسلام نصراني واهتدائه لما رأى من قيام هذه الأمة في رعاياها وأهل ذمتها بالعدل والقسط الذي هو من أحكام الأنبياء[٢].

المبحث الثالث
اعتراف أعداء هذه الأمة بعدالتها

بلغت عدالة هذه الأمة يوم أن كانت في أوج قوتها ونفوذ سلطانها، وقدرتها على البطش والظلم ـ إن أرادت ـ حدّاً أذهل الأعداء والخصوم، وجعلهم مشدوهين أمام عظمة هذه الأمة، والدين الذي تدين به وتدعو الأمم إليه، ومما جعلهم ـ على ما في قلوبهم من غل وحقد وحسد ـ يشيدون بعدالة هذه الأمة وسماحتها وقيامها بالقسط مع خصومها ومن يعيش في كنفها من أهل الديانات الأخرى قبل أبنائها ومواطنيها فنطقت ألسنتهم بما رأوا ولمسوا من العدل والإنصاف والسماحة التي عاشوها وعوملوا بها في رحاب هذه الأمة وتحت سلطانها، وحين تأتي الشهادة لهذه الأمة من الأعداء والخصوم، فهي شهادة غير متهم ولا محابٍ، بل هي شهادة عدو، وخصم أنطقه واقع العدل الذي نعم به في جوار هذه الأمة والرحمة التي مسته مما لم يجد لها مثيلاً حتى من بني قومه وعقيدته.

وقديماً قيل: والفضل ما شهدت به الأعداء.

وهذه مجموعة من اعترافات وشهادات الأمم وأهل الأديان الأخرى بعدالة هذه

(١) السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي، باب إنصاف الخصمين (١٠/١٣٦).
(٢) انظر: وسطيّة أهل السنن بين الفرق (١٧٤).

الأمة وإنصافها لمن عاش تحت شريعتها منهم:

١ ـ روى البلاذري[١] من طريق سعيد بن عبد العزيز[٢] قال: بلغني أنه لما جمع هرقل[٣] للمسلمين الجموع وبلغ المسلمون إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك، ردوا على أهل حمص[٤] ما كانوا أخذوا منهم من الخراج، وقالوا: قد شغلنا عن نصرتكم، والدفع عنكم، فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم[٥] ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم...)[٦].

وكان أهل حمص نصارى، صالحهم المسلمون على أن يدفعوا الجزية والخراج ويتكفل ولي أمر المسلمين بحمايتهم، ودفع الأعداء عنهم، وقد كانوا قبل حكم المسلمين تحت حكم الروم وهم على دينهم.

فلما رأى المسلمون أنهم غير قادرين على الوفاء لهم بشرط الحماية ردوا عليهم ما أخذوا منهم، فأكبر ذلك أهل حمص، لأنهم لم يعهدوا مثله في أمة غير المسلمين وأشادوا بعدل المسلمين وحسن ولايتهم عليهم، وأنهم أحب إليهم من الروم مع كونهم على دينهم. وهذه شهادة صريحة بعدالة هذه الأمة التي مارست منهج القرآن في حياتها.

وهذا اعتراف آخر وشهادة أخرى من أهل وادي الأردن: لقد كتبوا إلى قائد المسلمين آنذاك وهو أبو عبيدة عامر بن الجراح[٧] ﷺ معربين عن تمنيهم لحكم

---

(١) هو أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري ولد في أواخر القرن الثاني الهجري ببغداد ورحل في طلب العلم، وترجم كتاب من الفارسية إلى العربية كان عالماً فاضلاً شاعراً راوية نسابة، وله مؤلفات أشهرها أنساب الأشراف، توفي عام ٢٧٩هـ، انظر: معجم الأدباء (٥/ ٩٢)، النجوم الزاهرة (٢/ ٨٢).

(٢) هو: سعيد بن عبد العزيز التنوخي الدمشقي مفتي الشام، أحد الأئمة ثقة حجة مات عام ١٦٧هـ. انظر: الذهبي ميزان الاعتدال (٢/ ١٤٩).

(٣) هرقل: ملك الروم.

(٤) قال الحموي: بلد مشهور قديم بين دمشق وحلب. انظر: معجم البلدان (٢/ ٣٠٢).

(٥) الغشم: الظلم والعصب. انظر: لسان العرب (١٢/ ٤٣٧) مادة غشم.

(٦) فتوح البلدان (١٤٣).

(٧) هو أبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح، أحد العشرة المبشرين بالجنة، أسلم قديماً وشهد بدراً، مات شهيداً بطاعون عمواس سنة ثماني عشرة، وله ثمان وخمسون سنة. ابن حجر التقريب، (١/ ٣٨٨).

المسلمين لما لمسوا من عدالتهم ووفائهم ورأفتهم بهم وأنهم يفضلونهم على الروم وإن كانوا على دينهم، قائلين: (يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا)[١].

٢ ـ شهادة المستشرق توماس و.آرنولد[٢]: يقول في كتابه: (الدعوة إلى الإسلام) وهو يتحدث عن اضطهاد الفرس للمسيحيين، موازناً بين سلوكهم وسلوك المسلمين: ولكن مبادىء التسامح الإسلامي حرمت مثل هذه الأعمال ـ التي كان يمارسها الفرس على رعاياهم من المسيحيين التي تنطوي على الظلم ـ بل كان المسلمون على خلاف غيرهم، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهداً في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس)[٣].

وقال عن إيثار أهل القدس وفلسطين لحكم المسلمين واغتباطهم به: (ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالي هذه البلاد، أي: القدس قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين)[٤].

٣ ـ شهادة واعتراف المستشرق الأمريكي وول ديورانت: وهذا مستشرق يهودي صهيوني حاقد وضع في كتابه (قصة الحضارة) السم في الدسم، وطعن في الإسلام ونبيه ﷺ وتعرض للمسيح عليه السلام بالطعن كثيراً، مما يجعلني أن أحذر من هذا الكتاب وأذكر من أراد أن يطلع عليه أن يتوخى الحذر ويتنبه لتلك السموم التي نشرها في كتابه هذا، ومع هذا أراد الله أن يظهر الحق على لسان هذا العدو اللدود.

يقول ديورانت مبيناً أوضاع حال أهل الذمة الذين يعيشون في ظل الدولة

---

(١) فتوح الشام (٩٧).

(٢) تومس ووكر آرنولد (١٢٨٠ ـ ١٣٤٩هـ) مستشرق إنكليزي، تعلم في كمبردج، واشتغل بالتدريس في عدة جامعات بالهند وباكستان، ثم عاد إلى لندن ودرس في جامعتها، وعين مديراً لمعهد الدراسات الشرقية، له عدة كتب بالإنجليزية عن العلوم الإسلامية، الأعلام للزركلي (٢/ ٧٦ ـ ٧٧). انظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، (٢/ ٨٤).

(٣) ترجمة حسن إبراهيم وزملائه (٨٨).

(٤) الدعوة إلى الإسلام (١١٦).

الإسلامية: ولقد كان أهل الذمة المسيحيون، والزرادشتيون[١] واليهود، والصابئون[٢] يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زِيٍّ ذي لون خاص، وضريبة عن كل شخص، تختلف باختلاف دخله... ولم تكن هذه الضريبة[٣] تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح، ويعفى منها الرهبان، والنساء، والذكور الذين هم دون البلوغ والأرقاء والشيوخ، والعجزة، والعمي، والفقر الشديد. وكان الذميون يعفون في نظير هذه الضريبة من الخدمة العسكرية... ولا تفرض عليهم الزكاة... وكان لهم على الحكومة أن تحميهم)[٤].

وهذا الشاهد التاريخي من مستشرق يهودي صهيوني يثبت أن المسلمين في الأندلس عاملوا أهل ذمتهم وفق القواعد التي وضعها وحددها الإسلام، وهي قواعد توفر لأهل الذمة الحماية وعدم الظلم وتسبغ الرحمة والعطف على الفقراء وذوي الأعذار، وتوفر لهم حرية ممارسة دينهم، وحرية الاكتساب، وهذا غاية العدل؛ بل هو إلى الفضل أقرب.

٤ ـ اعتراف المستشرق ستانلي لين بول:

نقل عنه صاحب (قصة الحضارة) العبارة التالية: لم تنعم الأندلس طول تاريخها بحكم رحيم، عادل، كما نعمت به في أيام الفاتحين)[٥].

---

(١) الزرادشتيون: اتباع زرادشت بن بورشب وهو رجل ظهر في أذربيجان في زمان الملك كشتاسب بن الهراست، وزعم أنه نبي، وله كتاب يُسمى (زنداوستا) زعم أنه أنزل عليه، وكان يدعو إلى عبادة الله، والكفر بالشيطان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم دخل التحريف الزرادشتية وآلت إلى أن أصبحت ديانة ثنوية مجوسية. انظر: الشهرستاني، الملل (٢/ ٤١).

(٢) الصابئة: نوعان: حنفاء موحدون، وصابئة مشركون يعبدون الكواكب. انظر: ابن تيمية، الرد على المنطقيين (٢٨٨).

(٣) ليست ضريبة، إنما هي الجزية تؤخذ مقابل توفير المسلمين لهم الحماية والأمان حتى من أعدائهم الخارجين.

(٤) قصة الحضارة (١٣/ ١٣٠ ـ ١٣١).

(٥) إن عبارة الفاتحين العرب دس من المستشرقين وخصوصاً أن طلائع الفتح الأولى كانت بقيادة طارق بن زياد، وهو من أصل بربري، والصحيح أن هذه البلدان فتحها المجاهدون المسلمون لنشر دين الله في الأرض.

ثم عقب المستشرق اليهودي ـ بقوله ـ: (ذلك حكم يصدره مستشرق مسيحي عظيم) ثم علب عليه حسده وخبثه وحقده وأراد أن يقلل من شأن هذه الشهادة والإشادة مع اعترافه بصحة حكم إستانلي، قائلا: (قد يتطلب تحمسه شيئاً من التقليل من ثنائه، لكن هذا الحكم بعد أن نقص منه ما عساه أن يكون فيه من التحمس يظل مع ذلك قائماً صحيحاً)[1].

المبحث الرابع
العدل عند أهل الكتاب

إذا تكلمنا عن العدل عند أهل الكتاب، وبَيَّنَّا ما وصلوا إليه من ظلم وجور، وجنوح عن الإنصاف والقسط، وهم أهل كتاب أنزل الله عليهم الكتب، وأرسل إليهم الرسل تترى، ومع ذلك حادوا عن الحق وحرفوا وظلموا وطغوا واستبدوا فكيف بغيرهم من الأمم التي لم تحظ بما حظوا به من توالي الرسالات وكثرة الأنبياء ولذلك نكتفي بالعدل عند أهل الكتاب خشية الإطالة.

وسأبين العدل عند اليهود أولاً فيما بينهم، ثم فيما بينهم وبين غيرهم من الناس، ثم عن العدل عند النصارى كذلك فيما بينهم، ثم فيما بينهم وبين الأمم الأخرى.

أولاً: مبدأ العدل عند اليهود:

أ ـ العدل فيما بينهم:

لقد أمرهم أنبياؤهم أن يقوموا بالعدل والقسط، وأن لا يتظالموا ولا يظلموا أحداً، وأنزل الله عليهم التوراة فيها هدى ونور، وفصل لهم فيها الحدود والأحكام والقصاص العادل، كما أخبر الله بذلك في القرآن الكريم، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ

(١) قصة الحضارة (١٣/ ٢٩٢).

﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (المائدة: ٤٤ ـ ٤٥).

وبقي بين أيدي اليهود من أسفار التوراة ـ مع تحريفهم وتبديلهم لها ـ أثر مما ورد ذكره في القرآن الكريم، وسأورد فيما يلي بعض نصوص أسفار التوراة، التي توجب على اليهود الحكم بالعدل والقسط، وتحذرهم من الظلم والجور في القضاء والكيل والوزن، ففي (سفر اللويين) أن الرب كلم موسى عليه السلام قائلاً: (لا ترتكبوا جوراً في القضاء، ولا تأخذوا بوجه مسكين ولا تحترم وجه كبير، بالعدل تحكم لقريبك)[١].

وفيه أيضاً: (وإذا نزل عندكم غريب في أرضكم فلا تظلموه، كالوطني منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك، لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر، أنا الرب إلهكم لا ترتكبوا جوراً في القضاء لا في القياس ولا في الوزن ولا في الكيل، ميزان حق ووزنات حق وإيفة حق وهبن حق تكون لكم أنا الرب إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر فتحفظون كل فرائضي وكل أحكامي وتعملونها أنا الرب)[٢].

وفيه أيضاً ما يدل على القصاص وأن النفس بالنفس: (وإذا أمات أحد إنساناً فإنه يقتل)[٣]، ومن قتل بهيمة يعوض عنها ومن قتل إنساناً يقتل، حكم واحد يكون لكم، الغريب يكون كالوطني إني أنا الرب إلهكم)[٤].

وفي (سفر الخروج): (من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلاً)[٥] فقد دل إذن القرآن الكريم، وأسفار التوراة التي بقيت بأيديهم على وجوب العدل عليهم والقصاص الحق عندهم، وتحريم الظلم والجور، فماذا فعل اليهود؟ لقد تلاعبوا بالنصوص وبدلوها وحرفوها، ولم يقوموا فيها بينهم بالعدل والقسط، وفرقوا بين القوي والضعيف، والحاكم والمحكوم والغني والفقير والشريف والوضيع، ولم يعدلوا بين الخلق في إقامة القصاص والحدود، كما أخبرنا رسول الله ﷺ عنهم في حديث المخزومية التي سرقت فقطع يدها وغضب ممن جاء يشفع فيها وقام فيهم خطيباً قائلاً: **«أيها الناس إنما ضل**

(١) إصحاح (١٩) فقرة (١٥).
(٢) إصحاح (١٩) فقرة (٣٣ ـ ٣٧).
(٣) لاويين: إصحاح (٢٤)، فقرة (١٧).
(٤) لاويين: إصحاح (٢٤)، فقرة (٢١ ـ ٢٢).
(٥) إصحاح (٢١)، فقرة (١٢).

من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد. . .»[١].

ومن الأدلة على هذه المسلك المشين ليهود ما أخرجه أبو داود وغيره عن ابن عباس ﷺ قال: «كان قريظة والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قتل به، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فودي بمائة وسق من تمر، فلما بعث النبي ﷺ قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فقالوا: ادفعوه لنا نقتله، فقالوا: بيننا وبينكم النبي ﷺ فأتوه فنزلت على الرسول ﷺ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ (المائدة: ٤٢). والقسط النفس بالنفس، ثم نزلت: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ (المائدة: ٥٠)[٢].

فانظروا كيف مالوا عن حكم الله ﷻ وتلاعبوا بحدوده، فأقاموا الحد، والقصاص على الضعيف فيهم، وصرفوه عن ذي المكانة والقوة والمنعة، والعجب لا ينقضي من تمالئهم على ذلك واتفاقهم عليه. وهذا شاهد آخر على اختلاف ميزان العدل عند اليهود، ومبلغ ظلمهم وجورهم، وتعطيلهم لحدود الله ﷻ: أخرج الإمام البخاري ﷺ عن عبد الله بن عمر ﷺ أنه قال: «إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟»** فقالوا: نفضحهم، ويجلدون، قال عبد الله بن سلام[٣]: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدُهُم يَدهُ على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، قالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان (١٢/ ٨٧)، رقم الحديث (٦٧٨٨).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الديات، باب النفس بالنفس، (٤/ ٦٣٤)، رقم الحديث (٤٤٩٤).

(٣) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي حليف بني عوف بن الخزرج أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، وشهد له الرسول ﷺ بالجنة، وشهد مع عمر فتح بيت المقدس، والجابية، وتوفي عام (٤٣هـ). انظر ترجمته في تهذيب التهذيب (٥/ ٢٤٩).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب أحكام أهل الذمة وإحصانهم إذا زنوا، ورفعوا للإمام: (١٢/ ١٦٦ رقم الحديث ٦٨٤١).

وفي رواية مسلم[١]: «أن اليهود حمموا وجه الزاني وجلدوه ولما سألهم النبي ﷺ قائلاً: أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: **«أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟»** قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم...»[٢].

وفي سفر التثنية من التوراة جاء في شأن حد الزاني النص الآتي: (ولكن إن كان هذا الأمر صحيحاً لم توجد عذرة الفتاة، يخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت، لأنها عملت قباحة في بني إسرائيل بزناها في بيت أبيها، فتنزع الشر من وسطك.

وإذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة، فتنزع الشر من إسرائيل.

إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل في المدينة فاضطجع معها فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموها بالحجارة حتى يموتا، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه، فتنزع الشر من وسطك)[٣].

ب ـ العدل عند اليهود مع غيرهم من الأمم:

إن نظرة اليهود إلى غيرهم من الأمم والشعوب نظرة تعالٍ وازدراء، فهم يرون أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه كما أخبر الله عن مقالتهم هذه وكذبهم فيها، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

(١) هو مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري أحد أئمة الحديث ومشاهيره، ولد عام (٢٠٤هـ)، وتوفي عام (٢٦١هـ)، وصحيح مسلم يحتل المرتبة الثانية بعد صحيح البخاري. انظر: تهذيب الأسماء للنووي (٢/ ٨٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب رجم اليهود، أهل الذمة في الزنى، (٣/ ١٣٢٧) رقم الحديث (١٧٠٠).

(٣) تثنية: إصحاح (٢٢)، فقرة (٢٠ ـ ٢٥).

وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ (المائدة: ١٨).

وكانوا يرون أن غيرهم من الأمم لا حق لهم في عدل ولا نصف، بل ويستحلون منهم الدماء والأنفس والأموال بحجة أن غير اليهود كفار مشركون لا حرمة لهم، وقد نبَّأنا الله خبرهم وقولهم هذا وعدَّهم كذبة مفترين في ذلك فقال ﷻ: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (آل عمران: ٧٥).

ومرادهم بالأميين العرب والمشركين وكل ما ليس بيهودي، روى ابن جرير عن قتادة ﷺ في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾، قال: ليس علينا في المشركين سبيل، يعنون من ليس من أهل الكتاب[١].

وفي أسفار التوراة المحرفة ما يشي بهذا المسك الذي انتهجه يهود تجاه الأمم الأخرى: ففي (سفر الخروج) ضمن الوصايا العشر التي يزعمون أن موسى عليه السلام تلقاها من ربه: (لا تشهد على قريب شهادة زور، ولا تشته بيت قريبك لا تشته امرأة قريبك، ولا أمته ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئاً مما لقريبك)[٢] فمفهوم قوله (قريبك) في هذا النص، أن غير القريب يجوز لهم اشتهاء امرأته وبيته و... وقد فهم اليهود هذا الفهم، ونص (التلمود)[٣] على ذلك كما سيأتي ذكر نصوص منه.

وفي (سفر التثنية) إباحة التعامل بالربا مع غير اليهودي، وتحريمه مع اليهودي: (للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا)[٤] بل يمنع التلمود إقراض غير اليهودي إلا بربا: (غير مصرح لليهودي أن يقرض الأجنبي إلا بالربا)[٥] ولقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أنه نهاهم عن أكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل وأنهم لما

(١) تفسير الطبري مع التصرف (٦/ ٥٢٢).
(٢) سفر الخروج: إصحاح (٢)، فقرة (١٦ ـ ١٧).
(٣) التلمود: وهو الكتاب الذي يحتوي على التعاليم اليهودية والتشريعات، يزعم اليهود أن موسى عليه السلام عندما تلقى التوراة مكتوباً تلقى معه التلمود مشافهة وهو تفسير وتفصيل للتوراة وهو عندهم أقدس منها (أي، بي، برانايتس، فضح التلمود: ٢١).
(٤) خروج: إصحاح (٢٠) فقرة (١٦ ـ ١٧).
(٥) الكنز المرصود في قواعد التلمود: ترجمة د. يوسف نصر (٩٠).

خالفوا وظلموا وأكلوا الربا حرم عليهم بعض الطيبات التي كانت حلالاً عقوبة لهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ (النساء: ١٦٠ ـ ١٦١).

وهذه بعض النصوص من التلمود التي تسمح لليهود أن تعتدي على أموال الأميين بل ودمائهم وأعراضهم، نسوق منها أمثلة ليتضح مدى ظلم اليهود وجورهم.

١ ـ إباحة دماء غير اليهود:

يقول التلمود: (اقتل الصالح من غير الإسرائيليين، ومحرم على اليهودي أن ينجي أحداً من باقي الأمم من هلاك، أو يخرجه من حفرة يقع فيها، لأنه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيين)[١].

(ومن العدل أن يقتل اليهودي بيد كل كافر، لأن من يسفك دم الكافر يقرب قرباناً لله)[٢] وكل من ليس بيهودي فهو كافر عندهم.

٢ ـ إباحة عرضه:

يقول التلمود: (لا يخطىء اليهودي إذا تعدى على عرض الأجنبي، لأن كل عقد نكاح عند الأجانب فاسد، لأن المرأة التي لم تكن من بني إسرائيل كبهيمة والعقد لا يوجد مع البهائم وما شاكلها)[٣].

قال ميموند اليهودي: (إن لليهود الحق في اغتصاب النساء الغير مؤمنات، أي الغير يهوديات)[٤].

٣ ـ إباحة ماله:

يقول التلمود: (إن الله حلل أموال باقي الأمم لبني إسرائيل لما رآهم قد خالفوا

(١) الكنز المرصود في قواعد التلمود (٩٠).
(٢) الكنز المرصود في قواعد التلمود (٩١).
(٣) المرجع السابق (٩٥).
(٤) المرجع السابق (١٥٢).

openkanar.com

السبع الوصايا المختصة بعبادة الأوثان، والزنى والقتل والسرقة، وأكل لحم الحيوانات الغير مذبوحة، وخصاء الإنسان وإيلاد الحيوان من غير جنسه)[١].

وفي شأن رد الأموال المفقودة لغير اليهودي يقول التلمود: (إن الله لا يغفر ذنباً ليهودي يرد للأمي ماله المفقود، وغير جائز رد الأشياء المفقودة من الأجانب)[٢].

وبهذا يتضح أن اليهود أهل ظلم وجور وفساد يظلمون الناس ويستحلون دماءهم وأعراضهم وأموالهم ويعدون ذلك ديناً، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

ثانياً: العدل عند النصارى:

أ: العدل فيما بينهم:

النصارى يتبعون التوراة في الأحكام والتشريعات، وما أمر به اليهود من العدل في الأحكام والحدود، وإيفاء الكيل والوزن وخلاف ذلك فإنه يسري على أمة النصارى كذلك.

لكن لما بغى اليهود وقست قلوبهم، وأحلوا ما حرم الله، وأكلوا أموال الناس بالباطل، جاء المسيح ليردهم إلى الجادة فلم يأمرهم بالعدل فحسب بل تجاوزه إلى الفضل والعفو، وأمرهم ألا يقابلوا الإساءة بمثلها، وأن لا يعتدوا على من اعتدى عليهم؛ بل قال لهم كما جاء في إنجيل (متى) الذين يزعمون أنه مما أنزل على عيسىعليه السلام (قد سمعتم أنه قيل: العين بالعين والسن بالسن، أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشرير؛ بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فخل له رداءك أيضاً، ومن سخرك ميلاً فامش معه اثنين، ومن سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا تمنعه، وقد سمعتهم أنه قيل: أحبب قريبك وابغض عدوك، أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم وأحسنوا إلى من يبغضكم، وصلوا لأجل من يعنتكم ويضطهدكم)[٣].

لكن أمة النصارى لم تهتد، بل حرفت وبدلت فضلّت عن سواء السبيل، ولئن

(١) الكنز المرصود في قواعد التلمود (٧٨ ـ ٧٩).
(٢) المرجع السابق (٨٣).
(٣) إنجيل متى: الإصحاح السادس، فقرة (٣٨ ـ ٤٤).

كان اليهود مغضوب عليهم فإن النصارى ضالون، كما ثبت عن المصطفى ﷺ أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) قال: «إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصارى»[(١)].

وأول ضلالهم وعظم جورهم وبغيهم أن عدلوا بربهم غيره، وجعلوا له شركاء، إذ جعلوه ثالث ثلاثة، وتارة جعلوا المسيح عليه السلام هو الإله، وأخرى ابن الإله، قال تعالى عن كفرهم وضلالهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: ١٧) وقال في آية أخرى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ (المائدة: ٧٢).

وقال ﷻ في آية أخرى: ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٧٣) وقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠).

والشرك بالله، واتخاذ غيره معه، من أعظم الظلم كما أخبر الحق تبارك وتعالى على لسان العبد الصالح لقمان: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ (لقمان: ١٣).

ولما نزل قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (الأنعام: ٨٢) شق ذلك على الصحابة وقالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إنما هو الشرك**»[(٢)].

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، أي هو أعظم الظلم)[(٣)].

فإذا كان القوم قد ارتكبوا أعظم الظلم والجور وظلموا أنفسهم بجعلهم لله أنداداً

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٨)، من حديث عدي بن حاتم.
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٣٨).

ومعه شركاء فماذا نتوقع منهم - وقد ضلوا وظلموا - غير الظلم والجور في جل حياتهم، لأنه بنوا دينهم عليه، فلم يكونوا قائمين بالعدل والقسط فيما بينهم، وقول الرسول ﷺ في قصة المخزومية التي سرقت: «**إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد**»[١] يشملهم وإن كان هو في اليهود أظهر، وهؤلاء رهبانهم الذين هم عبادهم وعلماؤهم، وهم الصفوة فيهم والقدوة، والذين يفترض أن يكونوا أقرب القوم إلى العدل وعدم الظلم فإذا هم ظلمة جائرين معتدين على أموال الناس بالباطل كما أخبرنا الله بذلك عنهم، وكما يدل عليه واقع الكنائس وسيرتها يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٤).

يقول الحافظ ابن كثير: (ذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس، ويأكلون أموالهم بذلك)[٢].

ولعل من أبرز مظاهر ذلك ما تمارسه الكنيسة من إصدار ما عرف بـ(صكوك الغفران)[٣] وهي صكوك يصدرها أهل السلطة في الكنيسة من البابوات والمطارنة والبطارقة، والقساوسة، باسم الكنيسة، يغفر بمقتضاها لحاملها ما اقترفه من الآثام والخطايا في حياته، مقابل أن يدفع مبالغ للكنيسة وهذا إلى جانب كونه أكلاً لأموال الناس بالباطل فهو أيضاً قول على الله بلا علم وافتراء عليه، وتعدّ على ألوهيته ﷻ إذ لا يملك غفران الذنوب والعفو عنها إلا هو سبحانه ولكن القوم ضلوا ضلالاً بعيداً.

ومن صور جور هذه الأمة وعدم عدلها، أن كل فرقة وطائفة منها إذا تسلطت على الفرق الأخرى أذاقتها ألواناً من الظلم والبطش والاضطهاد، ولم ترقب فيهم إلّاً ولا ذمة. يقول د.أحمد شلبي: (تكرر في تاريخ المسيحية حدث عظيم لم يختلف، وهو التجاء الجانب القوي إلى أعنف وأقسى وسائل الاضطهادات والتعذيب، والتنكيل والحرق، والإفناء يسلطها على الجانب الضعيف... والعجيب أن المسيحيين اضطهدوا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان: (١٢/ ٨٧ رقم: ٦٧٨٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٨٠).

(٣) للاطلاع على صورة وفحوى هذه الصكوك، راجع كتاب محاضرات في النصرانية، لأبي زهرة (١٧٢)، والمسيحية للدكتور أحمد شلبي (٢٥٤).

من اليهود والرومان، ونزلت بهم الويلات في القرون الثلاثة الأولى، فلما بدأ جانبهم يشتد رأيناهم ينزلون نفس الويلات بمخالفيهم من أبناء دينهم، ومن أتباع الأديان الأخرى، ومن هنا فنيت مذاهب مسيحية كثيرة كان بعضها في وقت ما له الغلبة في العدد، ولكن تنقصه القوة والسلطان، وكان فناء هذه المذاهب بسبب قوة اليهود والرومان أحياناً، وأحياناً بسبب قسوة فرق مسيحية أخرى قويت واشتدت بالأباطرة وذوي النفوذ)[١].

وهذا مصداق قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ (المائدة: ١٤).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (... أي فألقينا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معبدها، فالملكية[٢] تكفر اليعقوبية[٣] وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية[٤] والآريوسية[٥] كل طائفة تكفر الأخرى..)[٦].

وكمثال على ما ذكر من ظلم أمة النصارى وجور بعضهم على بعض، ما لاقاه أقباط مصر - وهم من الطائفة اليعقوبية - من ظلم واضطهاد على يد أبناء دينهم

---

(١) المسيحية (٢٣٧).

(٢) الملكية: أو الملكانية: أصحاب ملكان الذي ظهر في أرض الروم، ومعظم الروم ملكانية، صرحوا بإثبات التثليث، وقالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح، وتدرعت بناسوته، انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، (٢/ ٢٧).

(٣) اليعقوبية: نسبة إلى يعقوب البراذعي، مصري ظهر في منتصف القرن السادس الميلادي يقول: إن المسيح ذو طبيعة واحدة امتزج فيه عنصر الإله بعنصر الإنسان، وتكون من الاتحاد طبيعة واحدة جامعة بين اللاهوت والناسوت. انظر: محاضرات في النصرانية: (١٤٠ - ١٥٩).

(٤) النسطورية: نسبة إلى نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون، يرى العذراء لم تلد إلهاً. انظر: الشهرستاني، الملل (٢/ ٢٩).

(٥) الآرسيوية: أصحاب آريوس، وكان قسيساً بالإسكندرية، ومن قوله: التوحيد المجرد وأن عيسى مخلوق، وأنه كلمة الله. انظر: ابن حزم الفصل: (١/ ٢٨).

(٦) هم أتباع الكنيسة الشرقية. انظر: المسيحية (٢٣٨).

البيزنطيين الذين كانوا يحكمونهم قبل الفتح الإسلامي لمصر.

يقول المستشرق توماس آرنولد: (. . . فإن اليعاقبة ـ وهم الأقباط ـ الذين كانوا يُكَوِّنون السواد الأعظم من السكان المسيحيين، قد عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسي[١] التابعين للبلاط، الذين ألقوا في قلوبهم بذور السخط والحنق اللذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم. كان بعضهم يعذب ثم يلقى بهم في اليم، وتبع كثير منهم بطريقهم إلى المنفى لينجوا من أيدي مضطهديهم، وأخفى عدد كبير منهم عقائدهم الحقيقية، وتظاهر بقبول قرار خلقدونية[٢].

وقد جلب الفتح الإسلامي إلى هؤلاء القبط ـ ذلك اللفظ الذي يطلق على المسيحيين من اليعاقبة في مصر ـ حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان)[٣].

وكثيراً ما كان الفتح الإسلامي مُخَلِّصاً لكثير من طوائف النصارى من حقد واضطهاد وظلم، وبجانب عامل العدل والتسامح الذي عرف به الفاتحون المسلمون كان هذا من العوامل التي جعلت الكثير من المسيحيين يفضلون الحكم الإسلامي على حكم أبناء دينهم من أتباع الطوائف الأخرى[٤].

ثالثاً: العدل فيما بينهم وبين غيرهم من الأمم:

وإذا فتحنا ملفات التاريخ وجدنا النصارى قد بلغو منتهى الظلم والاضطهاد لمن يقع تحت حكمهم وسلطانهم من أهل الأديان الأخرى من قتلهم وترحيلهم واضطهادهم، وكانت أعمالهم الانتقامية سياسة ثابتة تستهدف إفناء الخصوم ومحو آثارهم، فقد ارتكبوا الكثير من المذابح التي دبرت ونفذت بوحشية بالغة ارتكبوا فظائع وجرائم يندى لها جبين الإنسانية ومن الشواهد التاريخية في ذلك ما فعلوه بسكان بيت المقدس إبان استيلائهم عليها، عندما تخاذل العبيديون للدفاع عنها، إذ اكتفى واليهم آنذاك ـ افتخار الدولة ـ بتأمين نجاته مع حرسه الخاص، وترك المدينة للصليبيين يعيثون

(١) انظر: محاضرات في النصرانية: لأبي زهرة (١٣٧).
(٢) نفس المصدر السابق، ص(١٣٧).
(٣) الدعوة إلى الإسلام (١٣٣).
(٤) انظر: وسطيّة أهل السنة بين الفرق (١٩٨).

فيها فساداً، بعد أن دافع عنها دفاعاً هزيلاً، ذرّاً للرماد في العيون[١].

وإليك ما قاله (القس ريمند) وهو شاهد عيان من النصارى: (وشاهدنا أشياء عجيبة، إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين، وقتل غيرهم رمياً بالسهام، أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم يعذب عدة أيام، ثم أحرق في النار، وكنت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيال)[٢].

ويقول المستشرق ستيفن رنسميان في وصف ذلك: (على أنه لم ينج من المسلمين بحياتهم إلا هذه الفئة القليلة ـ وهم افتخار الدولة والي العبيديين على القدس وحرسه الخاص ـ إذ أن الصليبيين وقد زاد في جنونهم ما أحرزوه من نصر كبير بعد شقاء وعناء شديد، انطلقوا في شوارع المدينة، وإلى الدور والمساجد يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال، دون تمييز، استمرت المذبحة طوال مساء ذلك اليوم وطوال الليل ولم يكن علم تانكرد[٣] عاصماً للاجئين إلى المسجد الأقصى من القتل، ففي الصباح الباكر من اليوم الثاني دخلت باب المسجد ثلة من الصليبيين فأجهزت على جميع اللاجئين وحينما توجه ريموند آجيل في الضحى لزيرة ساحة المعبد أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه. وفر يهود بيت المقدس جميعاً إلى معبدهم الكبير، غير أنه تقرر إلقاء القبض عليهم بحجة أنهم ساعدوا المسلمين فلم تأخذهم الرحمة والرأفة، فأشعلوا النار في المعبد، ولقي اليهود بداخله مصرعهم محترقين. يقول: (وتركت مذبحة بيت المقدس أثراً عميقاً في جميع العالم، ليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها[٤] غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود)[٥].

فانظر الفرق الشاسع بين دخول الصليبيين هذه المدينة المقدسة لدى المسلمين والمسيحيين واليهود، وبين دخول القائد المسلم صلاح الدين. وفي الأندلس عندما

---

(١) انظر: وسطيَّة أهل السنة بين الفرق (١٩٩).
(٢) انظر: وول ديورانت، قصة الحضارة، (١٥/ ٢٥).
(٣) أحد قواد الصليبيين، لما رآه المسلمون استسلموا ورفعوا علمه على المسجد.
(٤) ذكر ابن الأثير أنهم يزيدون على سبعين ألفاً (٨/ ١٨٩).
(٥) انظر: تاريخ الحروب الصليبية (١/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥).

استولى النصارى الحاقدين ألحقوا بالمسلمين ضروباً من الأذى والظلم والجور والعدوان، يصور ذلك الدكتور توفيق الطويل في إيجاز فيقول:

(وقد استنفدت الكنيسة جهدها في إقناع المسلمين المقيمين في إسبانيا، لكي يرتدوا عن دينهم ويعتنقوا المسيحية ديناً، وعلى غير جدوى ما بذلت من جهود، فاستجمعت محكمة التفتيش كل قواها، واعتصمت بالجرأة والتعصب، وصبت عذابها على المسلمين في غير رفق ولا عدالة حتى اعتنق النصرانية من خار في ميدان الكفاح، وهاجر من خار بين التمسك بعقيدته، واحتمال آلآم العذاب، وفي عام ١٦٠٩ و١٦١٠ تم إجلاء ألوف المسلمين عن إسبانيا بعد أن أغرقوا بدمهم أرضها، وكتبوا في المقاومة أنصع الصفحات في تاريخ الجهاد في سبيل الله)[١].

وأما في العصر الحاضر فأقرب الشواهد إلى الذاكرة على ظلم النصارى ومبلغ حقدهم واضطهادهم، ما فعله نصارى لبنان الموارنة ضد المسلمين الفلسطينيين في مخيمي (صبرا وشاتيلا) من مجازر ومذابح أودت بأرواح الآلاف من قاطني المخيمين مع ما صاحب ذلك من النهب والتدمير الشامل لمحتويات المخيمين وذلك عقب اجتياح الجيش اليهودي الصهيوني لمدينة بيروت وغيرها من المدن اللبنانية عام ١٩٨٢م، ١٤٠٢هـ.

يقول أحد شهود العيان: (... دفنت في يوم واحد عدداً إجمالياً مائة وثلاثة جثث... وعندما دخلت المخيم رأيت اللحم ملزقاً على الحيطان وتستطيع أن تقول كل أساليب القتل قد استخدمت: الساطور، البارود، الرصاص، العصى، كاتم الصوت... وكان بين الضحايا من كان عمره تسعين سنة... ومن بين الذين دفناهم أطفال أعمارهم بين ٦ ـ ٧ سنوات ونساء من مختلف الأعمار، كانوا أي: النصارى ـ يقتلون كل شيء يتحرك أمامهم)[٢].

فقد أصبحت معلومة لكل إنسان على وجه المعمورة من اغتصاب وقتل وذبح وتشريد. إن النصارى ما كانوا في عدائهم عدولاً، ولا رحماء بمخالفيهم، كما هو شأن الإسلام، فقد كانت أعمالهم بخصومهم تفوق كل وصف، ولولا ما نقله شهود العيان

(١) انظر: قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام (٧١ ـ ٧٢).
(٢) وجاء دور المجوس (٢/ ٥٨ ـ ٥٩).

مما أنزلوه بغيرهم من الظلم والعدوان لما استطاع المرء أن يصدق هذه الأعمال الموغلة في الوحشية والشناعة، من قوم لا دين لهم، فضلاً عن قوم يدعون أنهم أتباع المسيح عليه السلام، وبهذه اتضح ملمح من ملامح الوسطيَّة وكيف مارسته أمة الإسلام مقارناً مع غيرها من أهل الكتابين واتضح لنا أنهم حادوا عن العدل إلى الظلم.

* * *

obeikandl.com